مَقهى الليل

إسلام أحمد

لظلامِ الليلِ درجات، فهُناك لَيلٌ يَكون ظلامه خَفيفًا، يَتخلَّله ضَوءًا شَحيح، وهُناك لَيلٌ يَكون مُظلِم ولَكنَّك تَستطيع مِن خلال ضَوء القَمر تَمييز الأشياء بوضوح، وهُناك لَيلٌ يَكون ظلامه داكن ومُوحِش كقبرٍ في جَوف كَهفٍ بَعيد.

كان ظلام هَذا اليَوم مِن النَّوع الثالث، ظلامٌ كَئيب، يُشيع في القَلب الوَهن،و كأيّ شاب في العقد الثاني مِن عُمره أُحِبُ مَجلس المَقهى مَع أصدقاء الحَيّ ، فكُل يَومٍ تَقريبًا، وبعدما يَنتهي يَومي العَملي، نتقابل ونَذهب سَويًا إلى مَقهى " الليل "، ونَجلس نَحتسي الشاي والقَهوة ونُدَخِن لفائف التَّبغ المَحشوة بالمُخَدِّر ،ونَنسى أنفسنا إلى ساعةٍ مُتأخرة مِن الليل.

وَصَلت الساعة إلى الثانية والنِصف بَعد مُنتصف الليل، المَقهى شِبه خالٍ إلَّا مِنَّا، انتهى السَّمر واللهو وتَفرَّق الجَّمع، مَشيتُ وَحدي مُتجهًا إلى مَنزلي الذي يَقع بَعد عِدَّة شوارع مِن شارع المَقهى، ثُمَّ قَررت أن أسلُك طَريقًا مُختَصر، وهو طَريق " السِكَّة الحَديد " دَخلته فكان مُظلمًا إلى حَدِ عَدم لرؤية، وهاديء إلى حَدِّ سماع صَوت أنفاسي؛ قَررت أن أدندن أي أغنية؛ ولَم أكد أن أفتح فَمي لأغنّي فإذا بي أسمع صَوت صَرخة مدوية، تَبدو لفتاة في العشرين مِن عُمرِها، التفتُّ حَول نَفسي بذعرٍ حَقيقي، وقَد زال عَن رأسي تأثير المُخدِر بَغتة، ودقَّات قَلبي تَعلو وتَهبِط بلا

هوادة، لَم أسمع صَوت أي صُراخ آخر، هدَّأت مِن رَوعي، وأخذت أُرَدِد الاستعاذة مِن الشَيطان، واستكملت المَشي إلى بَيتي، خَطوتين فَقط وبدأ صَوت البُكاء، كان صَوت بُكاء نسائي، يَبدو أنَّه لنَفس فتاة الصَرخة، بُكاءٌ تَحوَّل إلى نَحيبٍ مُتَقطِّع، قدماي غُرسا في الأرض الأسفلتية مِن الخَوف، أصغي بُكل ما في أذني وعَقلي مِن طاقة لأحدد مَكان هَذه الفتاة بالتَحديد ولا أستطيع، بدأت التَّحدُّث فخَرج صَوتي مُتلعثمًا خائفًا مِن هَذا الظلام الموحش :

- مين ؟؟ مين إل ل ي بيعيط كدا؟!

فَلم يُجيب أحد، بَل استمَرَّ صَوت النَحيب.

ثُمَّ دَوت صَرخة ثانية، أخرجت هاتفي مِن النوع " Nokia " ، واشعَلت ضَوء الكَّشاف، وَجَّهته حَولي ويَدي تَهتز بِه كالمَجنون، فيَصدر عَنه أثر الاهتزاز ضَوءًا أبيضًا راقص في كَبَد الظلام، ثُمَّ رأيتهم جَميعًا.

كانوا واقفين أمام سيارة حمراء مِن النوع " فيات ٢٨ "، أربعة رِجال، وفتاة تَبدو في العشرين مِن عُمرها، الأربعة مُلتَفين حَولها، يَنهشون جَسدها نَهشًا، يلوثونه بأفواهِهم، يُدنِّسون مناطق جَسدها الحساسة بأيديهم، إنَّها حالة أغتصاب عَلنية، والفتاة تَنتحب وتترجَّاهم أن يَتركوها ترَحل، وهُم كالكِلاب، يَلعقون عَظمتهم بلا رَحمة، أفرغ الأربعة شَهواتهم عَليها، وأنا واقفٌ لا أستطيع التَّحرك مِن هَول المَشهد، أغلقت كَشَّاف هاتفي ومَشيت بحَذرٍ نَحوهم، أخرجت " مَفك " مِن شَنطة عِدَّتي وذَهبت تجاههم مُقررًا قَتلهم واحدٌ وراء الآخَر، مَشيت بهدوء المَوتى، والغَريب أنّ أثناء اتجاهي نَحوهم اختفى صَوت النَحيب والهمهمات والشَّهق، وحَلَّ

مَحلهم صَوت السكون مِن جَديد، آثار ذَلك رَيبتي، فأخرجت هاتفي مَرة أخرى وفَتحت ضَوء الكشَّاف، لَم يَكن هُناك أي شيء غَيري في الشارع كُلَّه!

لَم اشعُر بنَفسي إلَّا وأنا أجري كالمجنون، بلا هوادة، وعِندما وَصلت إلى مَنزلي دَفنتُ جَسدي تَحت أحد الأغطية، غَرقتُ في خَوفٍ كَبير، وعقلي عاجزٌ عن تَفسير ما رأيته اليَوم، ومِن شِدَّة التَّعب، نِمت!

جاءتني في كابوسٍ لَعين، نَفس الفتاة، ونَفس الأربع شُبَّان، ولَكن هَذه المَرّة كانوا يَغتصبونها في غُرفتي، وعَلى فراشي، وهي تَصرُخ و تَنتحب كدجاجةٍ تُذبَح، ثُمَّ استيقظت أثر صَوت أمي وهي تُوبّخني؛ كَي أذهب للعَمل.

في اليوم التالي وعَلى مَقهى " الليل "، جَلست أنا ورِفاقي، مِثل العادة، وأثناء السَّمر حَكيت لَهم ما حَدث مَعي لَيلة أمس، هُناك مَن استهزأ بكلامي وهُناك مَن ظَهر عَلى وَجهه الجَد للحظاتٍ بَسيطة، مُدَّعين أنَّ ذَلِك مِن أثر المُخَدِر، قُلت لَهم أنّ ما رأيته حَقيقة مائة بالمائة، فلَم يُصدِّقوني، إلا أن سَمعنا صاحب المَقهى، وهو رَجلٌ في العقد الخامس مِن عمره، لَه هَيبة في حَيينا كُله، قَطع كلامنا وقال:

- صدقوه يبني أنت وهو، دي " بُثينة "، بنيّة كانت شغالة ف صَيدلية قريب من هنا، كانت ساكنة ف آخِر شارع السكة، وبعد ما خلصت ورديتها بالليل ومروَّحة، وَقفها أربع شباب بعربيتهم، كانوا سكرانيين، اغتصبوها وبعد كدا دبحوها، وحطوها ف شوال ورموها ف مَقلب الزبالة اللي جنب سكة القَطر، الأربعة دول ف نهار يوم مِن الأيام لقوهم كلهم متعلقين عَلى سلك الكَهربا بتاع المحطة، مَشنوقين، ولامؤاخذة أعضاءهم الذكرية

مش موجودة. صدقوه يبني أنت وهو؛ لأن " بُثينة " بتظهر كتير لناس معينة في الشارع دا.

ثُمَّ نَظر إليَّ وقال بلهجةٍ حَزينة :

- بس يبني إللي أعرفه أن لما حد بيشوفها، بتقعد روحها ملازماه فترة، لحد ما بتمشي لوحدها، أوعى تفكَّر تضايقها يا كامل .

بَعدما سَمعت كلام صاحب مَقهى " الليل " أصبحت أشعُر بالخوف أكثر مِن أي وَقت مَضى، وبالفِعل ظَلّت " بُثينة " تُلازمني أحلامي فَترةً طَويلة مِن الوَقت، ورأيتها مَرَّة وحيدة وأنا جالس عَلى المَقهى مَع رِفاقي، مَرَّت بملابسها المُقَطَّعة أمام باب المَقهى، وعندما خَرجت وراءها لَم يكن لها أثر في الشارع كله، بعدها رَحلت عَنّي بلا أي مُقدِّمات.

واليَوم وبَعد عَشر سنوات رأيتها مُجدَّدًا،

بَعدما تَركت الحَيّ كُله، وتَزوَّجت بَعيدًا، جئت لأزور والدتي، وفي الليل نَزلتُ لاشتري بَعض الأدوية لها مِن صَيدلية في شارع السكَّة، وأنا عائدٌ كان الشارع مُظلمًا تمامًا، رَنَّ هاتفي، فأخرجته، وعَلى ضَوء الهاتف رأيتها،

كانت جالسة في مُنَتصف الشارع عَلى سيارة حمراء مِن نوع " الفيات ٢٨ " كانت ملابسها مُقَطَّعة، وتَنزفُ دَمًا مِن فَتحتي أنفها، تَنظُر إلى عَيناي مُباشرةً، وتَبتسم، ظَلَّت مُبتَسمة لي ابتسامةً مُخيفة، لَوَّحت لي بيَديها ثُمَّ نَزلت مِن عَلى السيارة، ومَشت بخطواتها المُتَعرِّجة باتجاه سِكَّة القِطار، ثُمَّ تلاشت في الظلام.